(مفاهيم ودلالات في منهجية تفسير الدكتور مصطفى محمود)

الباحث: محمد على ابراهيم ابراهيم داؤد

♦ المقدمة ♦

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرفِ المرسلين، نبيِّنا محمدٍ الصادقِ الأمين، وعلى آله الطيبين الطاهرين، وأصحابه الغُرِّ الميامين، وأزواجِه أمهاتِ المؤمنين، ومَن اتبع سبيله بإحسان إلى يومِ الدين؛ أما بعد:

جاء القرآنُ لِيُفَجِّر في العربِ يَنَابِيعَ المعرفةِ والانتفاع، ويُثِيرُ فيهم مَحَبَّةَ البحثِ والاطلاع– بعدما عاشوا قُرُونًا في أميةٍ وجَهالَةٍ وانقِطاع!–؛ فكانت تلك بدايةَ طريقِهِمُ المسْتَنِير، إذْ مَنَّ اللهُ عليهم بِنَشْأةِ (علوم التفسير)، فباتت مِن أشرفِ العلومِ علَى الإطلاق, وأُولَاهَا بالتفضيلِ علَى الاستِحْقاق، وأرْفَعِها قَدْرًا بالاتفاق؛ ذلك أنها تخدم الكتابَ الكريم، المشتمل على كلامِ اللهِ العظيم.

ولقد كان الصحابة ﷺ يأتون النبيَّ ﷺ فيسألون؛ فيُبَيِّن لهم ويُوَضِّحُ إليهم ما به يَهْتَدُون؛ {وأنْزَلْنا إلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنّاسِ ما نُزِّلَ إلَيْهِمْ ولَعَلَّهم يَتَفَكَّرُونَ}(١)

ثم –مِن بعد النبيِّ ﷺ–: جاء الصحابةُ ﷺ بعِلْمِهِمْ؛ ليُبَيِّنوا للناس ما غاب عنهم مما أخذوه عن نبيِّهِمْ، وإلا رَجَعوا فيه إلى اجتهادِهم ورأيِهِمْ؛ فإنَّ اللهَ قد مَنَحَهُمْ صَفاءَ ذِهْنٍ وفَهْمًا, وحَبَاهُم سِعَةَ إدراكٍ وعِلْمًا.

ولَمَّا كان العَالِمُ الدكتور مصطفى محمود؛ مِمَّن لهم في التفسيرِ اجتهاداتٍ وجُهُود، فأتَى بكثيرٍ مِن التحريراتِ المتعمقة، غير أنها سَاحَتْ في كتاباتِهِ المتفرقة؛ فلذلك عَقَدْتُّ عَزْمِي وجَمَعْتُ هِمَّتِي، وأجْمَعْتُ رَأيِي وَقَرَّرْتُ وِجْهَتِي، مُبَيِّنًا مَنْهَجَهُ .. مَفاهِيمَهُ .. والدِّلَالَات، جامعًا ما تَفَرَّقَ مِن ذلك في عامَّةِ الكِتَابَات؛ فكان موضوعُ رسالتي هذه –بِتَوْفِيقِ ربِّنا المعبود–: «تفسير القرآن مفاهيم ودلالات في كتابات د. مصطفى محمود».

واللهَ أسألُ العَوْنَ علَى ما نَوَيْتُهُ، والتوفيقَ لِمَا تَحَرَّيْتُهُ؛ إنه خَيْرُ مُوَفِّقٍ ودَلِيل، وهو حَسْبُنا ونِعْمَ الوكيل، ولا حَوْلَ ولا قوةَ إلا باللهِ العظيمِ الج

♦ أهمية موضوع البحث وأسباب اختياره ♦

تكمن أهمية هذا الموضوع، وأسباب اختياري له في عدة أمور؛ منها :

١– أنَّ الدكتور مصطفى محمود معدود من الشخصيات البارزة التي حَظِيَت باحترامٍ وقبول في الأوساط المختلفة في عصرنا.

٢– أنه قد تعددت كتابات د. مصطفى محمود في مختلف العلوم والفنون، ومنها تفسيره لكثير من آيات القرآن العظيم الذي صاغه بأسلوبه المتميز وعبارته السهلة وطريقته العصرية؛ فأردت بيان وجمع جهوده المتفرقة في ذلك من خلال إلقاء الضوء على بعض مؤلفاته وكتاباته القيمة.

♦ أهداف موضوع البحث ♦

١– بيان المنهجية التفسيرية التي انتهجها الدكتور مصطفى محمود في تفسيره آيِ القرآن.

٢– بيان بعض المفاهيم والدلالات والقضايا العامة القرآنية

٣– بيان بعض المباحث التفسيرية وفهمه للنص القرآني من خلالها.

♦ منهج وأسلوب الباحث في تحرير موضوع البحث ♦

سأعتمد –بمشيئة الله تعالى– في منهجيتي لتحرير هذا البحث على «أسلوب الدراسة النقدية).

♦ خطة البحث ♦

يتكون هذا البحث من (مقدمة) و(تمهيد) و(فصلين) و(خاتمة)

♦ المقدمة : وتشتمل على ما يأتي :

- أولاً : أهمية موضوع البحث. • ثانيًا :أهداف موضوع البحث.
- ثالثًا : منهج الباحث وأسلوبه. • رابعًا : خطة البحث.
- **الفصل الأول : منهجه التفسيري للقرآن الكريم : وفيه ثلاثة مباحث :**
  - المبحث الأول : منهجه في التفسير العلمي.
  - المبحث الثاني : منهجه في التفسير اللغوي والبياني وتوظيفه للمعنى المعاصر.
  - المبحث الثالث : منهجه في التفسير العقلي.

المبحث الأول

منهجه في التفسير العلمي

منهج الدكتور مصطفى محمود في «التفسير العلمي»

قد بَيَّن د مصطفى محمود ملامح ومعالم منهجه العلمي في التفسير العصري الحديث؛ فقال: «القرآن له أسلوبه المختلف عن كل الأساليب ... وهو حينما يشير إلى مسألة علمية لا يعرضها كما يعرض أينشتين المعادلات!، ولا كما يعرضها عالم بيولوجي برواية التفاصيل التشريحية .. وإنما يقدمها بالإشارة والرمز والمجاز والاستعارة واللمحة الخاطفة والعبارة التي تومض في العقل كبرق خاطف أنه يلقي بكلمة قد يفوت فهمها وتفسيرها على معاصريها .. لكنه يعلم أن التاريخ والمستقبل سوف يشرح هذه الكلمة يبثها تفصيلا {سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلْءَافَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ}(٢)، والله يقول عن كلامه: {وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ}(٣)، ويقول عن القرآن: {ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ}(٤) أي: أنه سوف يشرحه ويبينه في مستقبل الأعصر والدهور»(٥).

ثم استطرد في بيان بعض إشارات القرآن لكثير من المكتشفات العلمية الحديثة، ثم قال: «كيف جاء القرآن بهذه الموافقات التي اتفقت مع نتائج العلوم والبحوث والجهود المضنية عبر مئات السنين! مصادفة ؟!، وإذا سلمنا بمصادفة واحدة فكيف نسلم بالباقي؟ وكيف يخطر على ذهن نبي أمي مشكلات وقضايا وحقائق لا يعرفها عصره ولا تظهر إلا بعد موته بأكثر من ألف وثلاثمائة سنة»(٦).

مثال على «التفسير العلمي» من كتابات الدكتور مصطفى محمود

قول د. مصطفى محمود بوجود الإشارة إلى لُغَةٍ للتخاطب بين النمل:

قال د. مصطفى محمود : «والنملة التي تكلمت في القرآن وحذرت بقية النمل من قدوم سليمان وجيشه: {قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ}(٧).

لو قرأت القليل عن علم الحشرات الآن لما سألت هذا السؤال.. إن علم الحشرات حافل بدراسات مستفيضة عن لغة النمل ولغة النحل.

ولغة النمل الآن حقيقة مؤكدة.. فما كان من الممكن أن تتوزع الوظائف في خلية من مئات الألوف ويتم التنظيم وتنقل الأوامر والتعليمات بين هذا الحشد الحاشد لولا أن هناك لغة للتفاهم، ولا محل للعجب في أن نملة عرفت سليمان.. ألم يعرف الإنسان الله؟»[٨].

فهذا البيان الإشاري لوجود لغة التخاطب بين النمل: مما قد أحسن د. مصطفى محمود في تناوله وتوضيحه؛ حيث أنه استدل عليه بعدة أمور –(نقلية) و(عقلية) و(علمية)–؛ مما لم يدع مجالاً للشك في ثبوت تلك الحقيقة العلمية الراسخة.

وفيما يلي بيان تفصيلي لاستدلالاته للتأكيد على أصالَتِها وصِحَّتها.

• أولاً: إثبات وجود لغة للتخاطب بين النمل مِن (الجهة النقلية) :

فإنَّ الله عز وجل بنص الآية –التي استدل بها د مصطفى محمود– قد أسْنَدَ "القول" إلى النملة، فقال: {"وقالت" نملة ....}، ولا يمكن أنْ يُسْنِدَ ربُّنا تبارك وتعالى إليها ذلك على سبيل المجاز، فالنملة قد تكلمت على الحقيقة بِلُغَةِ بني جنسها، ولا آكد لذلك مِن أنَّ سليمان ♠ كان قد سمع قولها الذي تكلمت به وفهمه وتبسم منه –بحكم الهبة التي حباه الله إياه من فهم لغة الحيوانات–، كما بين الله عز وجل ذلك بقوله: {فَتَبَسَّمَ ضاحِكاً مِنْ (قَوْلِها)}، ففي هذه الآية تحقيق وتأكيد على أن النملة كانت قد قالت قولاً على الحقيقة؛ حيث أنه قد كرَّر إسناد لفظ "القول" إلى النملة مرتين[٩].

المبحث الثاني: منهجه في التفسير اللغوي والبياني وتوظيفه للمعنى المعاصر

منهج الدكتور مصطفى محمود فى التفسير اللغوى

ومما لوحظ أن انصراف د. مصطفى محمود إلى «التناغم الصوتي للقرآن الكريم» كان السبب الرئيسي والانطلاقة الكبرى التي انطلق منها بعد ذلك إلى الالتفات إلى الدقائق اللغوية في القرآن.

وقد أشار د. مصطفى محمود إلى ذلك بقوله: «ولكن الموسيقى الباطنية ليست هي كل ما انفردت به العبارة القرآنية، و إنما مع الموسيقى صفة أخرى هي "الجلال"!. و في العبارة البسيطة المقتضبة التي رَوَى بها اللهُ نهاية قصة الطوفان؛ تستطيع أن تلمس ذلك الشيء (الهائل) (الجليل) في الألفاظ: {وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءكِ وَيَا سَمَاء أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاء وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى

الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ}. تلك اللمسات الهائلة .. كل لفظ له ثقل الجبال وَوَقْعُ الرُّعُود تنزل، فإذا كل شيء: صَمْتٌ .. سكونٌ .. هدوء، و قد كَفَّتِ الطبيعة عن الغضب، ووصلت القصة إلى ختامها ... إنك لتشعر بشيء غير بشري تمامًا في هذه الألفاظ الهائلة الجليلة المنحوتة من صخر صوان، وكأن كل حرف فيها جبل "الألب"، لا يمكنك أنْ تغير حرفًا، أو تستبدل كلمة بأخرى، أو تؤلف جملة مكان جملة، تعطي نفس الإيقاع والنغم والحركة والثقل والدلالة .. وحاول و جرب لنفسك في هذه العبارة البسيطة –ذات الكلمات العشر– أن تغير حرفا أو تستبدل كلمة بكلمة.

ولهذا وقعت العبارة القرآنية على آذان عرب الجاهلية –الذين عشقوا الفصاحة والبلاغة– وَقْعَ الصاعقة!، ولم يكن مستغربًا من جاهِليٍّ مثلِ (الوليد بن المغيرة)، عاش و مات على كُفْرِهِ أنْ يذهل، وألا يستطيع أن يكتم إعجابه بالقرآن –برغم كُفْرِه!–؛ فيقول: و قد اعتبره من كلام محمد: "وَاللهِ إنَّ لِقَوْلِهِ لَحَلَاوَةٌ، وَإنَّ عَلَيْهِ لَطَلَاوَةٌ، وَإنَّ أَعْلَاهُ لَمُثْمِرٌ، وَإنَّ أَسْفَلَهُ لَمُغْدِقٌ، وَإنَّهُ لَيَعْلُو وَلَا يُعْلَى عَلَيْهِ"»(١٠).

وبهذا يتضح لنا: كيف كان «التناغم الصوتي للقرآن الكريم» –الذي هجم على سمع ووجدان د. مصطفى محمود أثناء تلقيه القرآن الكريم فترة طفولته حيث يكون المرء نقيًّا وصافيًا – ؛ كيف كان ذلك سببًا ومنطلقًا له إلى تأمل الألفاظ القرآنية ودقائق التراكيب وإدراك الهيبة الإلهية المتمثلة في العناية بحسن اختيار الكلمات القرآنية؛ مما رَسَّخَ عنده أهمية كل لفظ، ودقة موضعه، وحُسْن دلالته على المراد الذي يتوافق –قطعًا– مع واقع الذين أنزل فيهم القرآن، وإرشاد الذين أنزل عليهم القرآن –قَلْبًا وقالَبًا–؛ الأمر الذي لم يعد معه وقوع العبارة القرآنية على آذان عرب الجاهلية –الذين عشقوا الفصاحة والبلاغة– وَقْعَ الصاعقة؛ أمرًا مستغربًا!.

مثال على اهتمام د. مصطفى محمود بـ «التفسير اللغوي للقرآن»

وتوظيفه ذلك في توضيح المعني المعاصر

١– المثال الأول: تفسير د. مصطفى محمود لقوله تعالى: {لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا} مع قوله تعالى: {جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا}:

ففي هاتين الآيتين قد استعمل الله عز وجل عين الفعل (جعلناه)، غير أنه عند الكلام على (الزرع) أو (المطعوم) قد أَكَّدَ الفِعْلَ (جعلناه) بإضافة (لام التوكيد)؛ كما قال تعالى: {أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ * أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ * لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ}(١١).

بينما عند الكلام على (ماء المطر) أو (المشروب) نجده قد جَرَّد الفعل عن (لام التوكيد)!؛ كما قال تعالى: {أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ * أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ * لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ}(١٢).

يقول د. مصطفى محمود في تفسير الآيتين: «واللام جاءت لضرورة التوكيد؛ لأن هناك مَن سوف يدعى بأنه يستطيع أنْ يتلف الزرع كما يتلفه الخالق، ويجعله حطامًا، في حين لن يستطيع أحد من البشر أنْ يدعى أنَّ في إمكانه أنْ ينزل من سحب السماء مطرًا صالحا؛ فلا حاجة إلى توكيدٍ باللام»(١٣).

المبحث الثالث: منهجه في «التفسير العقلي»

منهج الدكتور مصطفى محمود في «التفسير العقلي»

لم يختلف منهج د. مصطفى محمود في «التفسير العقلي» أو «التفسير بالرأي» عن منهجه في «التفسير العلمي» كثيرًا؛ حيث أنه لم يزل يعتمد ويميل إلى وجود «الإشارة والرمز والمجاز والاستعارة» في عبارات القرآن، فيحمل الكلام عليها أكثر من حمله على الحقيقة!، وهذا بالإضافة إلى كونه –فيما يبدو– من محاور التفسير الخاصة عند د. مصطفى محمود، فهو –أيضًا– من محاور التفسير بالرأي –عمومًا–؛ إذ لا يمكن أن يكون للإنسان رأي أو تفسير خاص مختلف عن ظاهر العربية وما دلت عليه النصوص والآثار إلا بصرف ظاهر الكلام عن حقيقته إلى المجاز والرمزية.

إلا أن د. مصطفى محمود –كما تقدم بيانه في «المطلب الأول»– قد اشترط على نفسه في تفسيره الخاص أنه لا ينتقل فيه من ظواهر الألفاظ والعبارات إلى ما يزعمه من المعاني الرمزية والمجازات إلا بقرائن وإشارات من الكلمات القرآن ذاتها؛ كما قال –في سياق نقده للتفاسير الباطنية في دين «البهائية»–؛ قال: «وهذا ينتهي بنا إلى موقف من التفسير لا بد من التزامه؛ هو الالتزام بحرفية العبارة ومدلول الكلمات الظاهر، لا ننتقل إلى تأويل باطني إلا بإشارة وإلهام من

الكلمات القرآنية ذاتها، فنفسر القرآن بالقرآن ظاهرًا وباطنًا، على ألا يتعارض تفسيرنا الباطن مع مدلول الكلمات الظاهر أو يكون نافيًا له، ولا يكون التفسير الباطني مقبولاً عندي إلا إذا كان مؤيدًا ومؤكدًا للمعنى الظاهر، ولا ترخيص فيه إلا بضرورة، وهذه هي الحدود التي تمليها طبيعة هذا الكتاب المحكم الذي لا يتقدم فيه حرف على حرف إلا بسبب عميق وضرورة لازمة»(١٤).

هذا وقد أضاف د. مصطفى محمود أمرًا أو قَيْدًا ثالثًا إلى ملامح منهجه في «التفسير العقلي»، وهو عدم القطع أو الجزم بصحة ما تَقَدَّم به من التفسيرات العقلية؛ لأن تفسيراته – مهما أيدها والتمس لها الدلائل والبراهين– تبقى ثمرة من ثمرات اجتهاده البشري المحتمل للخطإ والصواب، كما ذكر –عقب اجتهاده في تعيين ماهية وحقيقة «الشجرة» التي أكل منها آدم وكانت سببًا لخروجه من جنة الخلد–؛ قال: «ولا يمكننا القطع في هذه المسائل ... لا نستطيع أن نقول فيها أكثر من الاجتهاد ، والله أعلم بكتابه، وهو –وحده– الذي يعلم تأويل ما فيه»(١٥).

مثال على «التفسير العقلي» من كتابات الدكتور مصطفى محمود

يقول د. مصطفى محمود: «ولا يصح تقديسها [يعني الكعبة] إلا رَمْزًا، وشأنُها شأنُ القرآن حين يقول الله عنه: {لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ}(١٦)، فلا يكون المقصود هنا (المصحف وورقه)؛ لأن المصحف وورقه مادة شانها شان كل المواد يجري عليها العطب والفساد، فإذا جرى البِلَى والفساد على الورق؛ لا يكون في ذلك مهانة للدين، وإنما المراد هنا المعنى العميق! ... {لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ} أي لا يمس معاني القرآن ولا يفهم اسراره إلا النفوس المطهرة من أهوائها»(١٧)

ففي هذا التفسير نجد د. مصطفى محمود قد جرى –أولاً– على عادته في اعتبار الرمزية والمجاز في آيات القرآن الكريم أكثر من اعتبار الحقيقة وإجراء الألفاظ على ظواهرها؛ وذلك حين صرف لفظ (المس) –الوارد في الآية الكريمة– من معناه المادي الحقيقي –الذي هو التناول بالجارحة– إلى معنى مجازي –وهو الفهم والإدراك– ، وكذلك صرف لفظ (الطهارة) –الوارد في نفس الآية– من المعنى الحقيقي للطهارة –وهي طهارة الجسد– إلى المعنى المجازي لها –وهي نقاء النفس من الأهواء–.

ثم إنه مع عدم التزامه بحرفية العبارة ومدلول الكلمات الظاهر –في تفسير هذه الآية–؛ نجده –أيضًا– لم يلتزم ببقية منهجيته التفسيرية، فنراه قد انتقل إلى تأويله الباطني دون أدنى إشارة

أو إلهام من الكلمات القرآنية ذاتها –فلم يُفَسِّر القرآن بالقرآن ظاهرًا وباطنًا–، ولم يذكر على ما زعمه دليلاً واضحًا من القرآن نفسه، بل زاد على ذلك أنه جعل تفسيره الباطني نافيا ومعارضًا لمدلول الكلمات الظاهر، مع أنه كان قد اشترط في منهجيته ألا يقبل التفسير الباطني إلا إذا كان مؤيدًا ومؤكدًا للمعنى الظاهر، وبذلك يكون قد أخل بالمحور الثاني من منهجيته التفسيرية.

وليته اكتفى بذلك!، بل نجده –كذلك– قد أخل بالمحور الثالث من منهجيته التفسيرية؛ حيث نفى أن يكون مقصود الله بالآية ظاهرها –ألا يمس القرآن أو المصحف إلا طاهر–، وجزم بأن المراد من الآية هو ما ذهب إليه من تفسيره الباطني!؛ حيث قال ما نَصُّه: «(فلا) يكون المقصود هنا المصحف وورقه ... (وإنما) المراد هنا المعنى العميق» [١٨]، ونلاحظ أنه قد أتى في عبارته بأركان جملة «الحصر العقلي» –الدائر بين (النفي) و(الإثبات) والذي لا يُجَوِّز العقلُ فيما وراءه شيئًا آخر بحيث إذا بطل أحد الأمرين وانتفى؛ تَعَيَّن الأمر الثاني للثبوت[١٩]–؛ مما يفيد جزمه وقطعه بتفسيره!.

فالظاهر أن د. مصطفى محمود لم يلتزم بمنهجيته –ذات المحاور الثلاث آنفة الذكر– في تفسيره العقلي أو تفسيره بالرأي لهذه الآية الكريمة. ثم عند البحث والنظر في تفسير الآية وفقًا للغة العرب وأصول التفسير ومقاصد الشريعة؛ تجد أن الصحابة قد اختلفوا في تفسيرها على معنيين لا ثالث لهما –كما حكاهما الإمامان الشافعي والطحاوي من الحنفية–[٢٠]،

- **الفصل الثاني : مفهومه لبعض القضايا القرآنية : وفيه عدة مباحث :**
  - المبحث الأول : مفهومه لعلة التحريم في آيات التحريم.
  - المبحث الثانى : مفهومه لِمَحْو السيئات من خلال النص القرآني.
  - المبحث الثالث : مفهومه للحروف المقطعة في فواتح السور القرآنية.

المبحث الأول

مفهومه لعلة التحريم في آيات التحريم

إنَّ التحريمَ جزءٌ لا يتجزأ مِن البناءِ القانونِي لأيّ نظامٍ موجودٍ، ذلك أنَّ النَّفْسَ البشريةَ لا تستقيمُ علَى الطريقِ السَّوِي دائمًا وأبدًا، وليس جميعُ البَشَرِ يَكْفِيهِم مجردِ الوعظ والإرشادِ والتنبيهِ.

وقد يظن بعضُ الناسِ أنَّ في التحريمِ تضييقًا علَى النَّفْسِ البشريةِ في سلوكِها وتَصَرُّفِها، لكنَّ الحقَّ: أنَّ التحريمَ ما هو إلا ضَبْطٌ لهذا السلوكِ بما يتوافقُ مع تحقيقِ المصالِحِ للناسِ في معاشِهِم ومَعادِهِم، ومِن الواجبِ: إدراكُ فَلْسَفَةِ التحريمِ في الإسلامِ، ومساحتِهِ ونِسْبَتِهِ ومَنَاطِقِهِ وقواعِدِهِ وأُسُسِهِ، حتى تطمئنَ نُفُوسُ المؤمنين، ويُفَعَّل تفعيلا إيجابيًّا في حياةِ المسلم.

فالتحريمُ لا يعني –بالضرورةِ– تضييقَ الدِّينِ علَى الناسِ، وإنما يعني تنظيمَ الحياةِ الاجتماعيةِ بكلِّ أطيافِها، بما يحقق العدالَةَ والأمْنَ، ويَضْبِطُ السلوكَ الإنسانيَّ في المجتمعِ تِجَاهِ النَّفْسِ والآخرين.

وقد حَرَّم اللهُ أشياءً وأباحَ أشياءً أخرى بشروطٍ خاصةٍ، ولِأسبابٍ وحِكَمٍ قد نَعْرِفُها أو نَجْهَلُهَا، ولكنَّ جَهْلَنا بسببِ التحريمِ –أحيانًا– لا يعني بالضرورةِ عدمَ وجودِ عِلَّةٍ أو حِكْمَةٍ للتحريمِ، وإنما قد تكونُ العلةُ أو الحِكْمةُ خافيةً علينا إلى أنْ تَتَكَشَّفَ بالعِلْمِ خلالَ الأيامِ.

يقول د. مصطفى محمود –في توضيحِ فلسفةِ التحريمِ في الإسلامِ–: «التحريمُ في القرآنِ ليس لمجردِ التحريمِ، ولا التحليلُ لمجردِ التحليلِ، وإنما هو تحليلٌ لكلِّ ما هو طيبٌ، وتحريمٌ لكل ما هو خبيثٌ {وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ}[٢١]، فاللهُ حَرَّم الضارَّ الخبيثَ، وأحَلَّ الطيبَ النافعَ؛ لم يُصْدِرِ الأمْرَ تَسَلُّطًا ومُعاقَبَةً وتَضْيِيقًا علَى الناسِ!، وإنما أقامَ شريعتَهُ مَحَبَّةً ورحمةً.

فإذا لم نَفْهَمْ هذه الحقيقةَ الجوهريةَ؛ فسوف نَتُوهُ في حَرْفِيَّاتٍ لا آخِرَ لها!، وتَضِيعَ مِنَّا رُوحُ القرآنِ كُلِّيَةً!!. وعلَى سبيلِ المِثالِ نأخُذُ هذه الآية: {قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ ... وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ }[٢٢] ... فلابُدَّ مِن العودَةِ إلى جَوْهَرِ التحريمِ لِنَفْهَمَ الآيةَ، فاللهُ حَرَّم الضارَّ الخبيثَ.

ومجردُ إرسالِ النظرِ لا ضَرَرَ منه، ولكنَّ الضررَ فيما يَجْرِي في القلبِ والعقلِ نتيجةَ إمعانِ النظرِ الخبيثِ!، أنْ تَتَخَطَّفَ العقلَ والقلبَ الشهواتُ، فيَفْقِدُ الإنسانُ هَدَفَه ويَنْسَى وِجْهَتَه ويَتَشَتَّتْ، ويأخذَ سبيلَهُ وراءَ ظَهْرٍ عُرْيَان! ... مِثْلُ هذا الإنسانِ فَقَدَ حُرِّيَتَه، ولم تَعُدِ المسألةُ مسألةَ نَظْرةٍ، وإنما أصْبَحَتْ عبوديةً وذُلًّا وتَبَعِيَّة وهبوطًا مِن ذُرْوَة الإنسانية إلى حالةٍ أشْبَهُ بحالةِ كَلْبٍ يَتَشَمَّم! ... ههنا قد وَقَعَ ضررٌ –بالفِعلِ–، وههنا يَبْدُو معنى الآيةِ، أنْ يَنْظُرَ الإنسانُ بشَهَوَاتِه لا بَعَيْنَيْهِ، ولا ضَرَرَ في إنسانٍ تَقُودُهُ عيناهُ في طريقِهِ، ولكنَّ المهَانَةَ والضررَ في إنسانٍ تَقُودُهُ شهوتُهُ

... وحِكْمَةُ الآيةِ القرآنيةِ واضحةٌ في مِثْلِ هذا النوعِ مِن النظرِ، والذَّوْقُ السليمُ يَنْفِرُ بالفِطْرَةِ ويَعَفُّ عن مِثْلِ هذا التحديقِ!؛ لأنه ضَرَرٌ، ولهذا أمَرَ القرآنُ المرأةَ المؤمنةَ بأنْ تُدْنِيَ عليها جِلْبَابَها ابتِعادًا بها عن مَزَالِقِ الإثارةِ والاستثارةِ، وهنا نَصِل إلى جَوْهَرِ التحريمِ، فالتحريمُ دائمًا لِضَرَرٍ» (٢٣).

فهذه هي فلسفةُ الإسلامِ في تحريمِ الأشياءِ كما أوْضَحَها د. مصطفى محمود وكما جَلَّاها بالمثالِ الذي ضَرَبَهُ، وهكذا عند استعراضِ الحَلالِ والحرامِ، في سائرِ أبواب الدِّينِ المختلفةِ؛ نَجِدُ أمثلةً حقيقيةً يَعِيشُها الناسُ كلَّ يومٍ –في المأكلِ والمشْرَبِ والمَلْبَسِ والمعاملاتِ الاقتصاديةِ والاجتماعيةِ والدُّوَلِيَّةِ– تَدُلُّ علَى حقيقةِ هذه الفلسفةِ.

ففي المطعوماتِ –مثلاً– نَجِدُ (تحريمَ الميتةِ –وما في حُكْمِها–، وتحريمَ الدمِ المسفوحِ، ولحمِ الخنزيرِ)، فاللهُ عز وجل قد جعل التحليلَ والتحريمَ، لِعِلَّةٍ ظاهرةٍ أو باطنةٍ، راجعةٍ لمصلحةِ البَشَرِ أنفُسِهِم، فلم يُحَلِّلْ لهم إلا طيبًا، ولم يُحَرِّمْ عليهم إلا خبيثًا، فالنَّفْسُ بِطَبْعِها تَعَافُ الميتةَ وتَسْتَقْذِرُها –وما في حُكْمِها كذلك!–، أما لحمُ الخنزيرِ: فقد أثْبَتَتِ الدراساتُ الحديثةُ مَضَارَّهُ علَى الإنسانِ.

وحَرَّمَ الإسلامُ علَى المسلمِ الذَّكَرِ (لُبْسَ الحريرِ والذهبِ) لِمَا في ذلك مِن نُعُومَةٍ لا تتناسبُ مع طبيعةِ الرَّجُلِ ودَوْرِهِ ورسالتِهِ في الحياةِ، وعَوَّضه عن ذلك بسائرِ الملابسِ الأنيقةِ التي تتناسبُ مع رُجُولَتِهِ والصورةِ التي ينبغي أنْ يَكُونَ عليها بَيْنَ الناسِ.

وحَرَّمَ الإسلامُ (شُرْبَ المسْكِراتِ والمخَدِّرَاتِ) لِمَا فيها مِن إضرارٍ بِعَقْلِ الإنسانِ –الذي جعلهُ اللهُ أحَدَ وسائلِ تَمْيِيزِهِ عن بَقِيَّةِ المخلوقاتِ، وجعلهُ مَنَاطَ التكاليفِ الشرعيةِ–، ولِمَا تتسببُ فيه مِن تدميرٍ لِصحةِ الإنسانِ، وإهدارٍ لِمَالِه فيما لا يُفِيدُ، وحمايةً لِأمْنِ المجتمعِ مِن مَخَاطِرِ السُّكْرِ والإدمانِ وفواحِشِ السُّكَارَى والمدْمِنينَ. بينما أباح للمسلمِ سائرَ المشروباتِ اللذيذةِ والمفيدةِ التي تحققُ لِجَسَدِهِ القوةَ والحمايةَ مِن الأمراضِ.

وحَرَّمَ الإسلامُ (الزنا)، لأنَّ فيه انتهاكًا للحُرُماتِ والأعراضِ، واختلاطًا للأنسابِ، وضَيَاعًا للذُّرِّيَاتِ، وتَحْوِيلاً للمشاعرِ الإنسانيةِ النبيلةِ الجميلةِ إلى الشهواتِ الحيوانيةِ المجردةِ الرذيلةِ، وعَوَّضَ الإنسانَ عن ذلك بالزواجِ الحلالِ وأباحَ له أنْ يَقْتَرِنَ بواحدةٍ واثنتينِ وثلاثٍ وأربعٍ ما دام قادرًا على الوفاءِ بحقوقِهِنَّ .

وحَرَّم الإسلامُ (الربا)؛ لأنه معاملةٌ تقومُ علَى الظُّلْمِ والاستغلالِ لحاجَةِ الإنسانِ الفقيرِ، وتحقيقِ الثَّرَاءِ الفاحِشِ دُونما جُهْدٍ!!، وشَرَعَ بَدَلاً مِن ذلك العديدَ مِن المعاملاتِ الحلالِ التي تُغْنِي الإنسانَ عن الربا المحَرَّم .

وبِضَرْبِنا لهذهِ الأمثلةِ العديدةِ؛ نكون قد أوْضَحْنا –بفضل الله عز وجل– كيف أنَّ د. مصطفى محمود قد أصابَ كَبِدَ الحقيقةِ في توضيحِ فلسفةِ التحريمِ في الإسلام؛ وهي أنَّ الله تبارك وتعالى لم يُحَرِّم علَى الإنسانِ إلا كلَّ ما هو ضارٌّ خبيثٌ، ولم يُحِلَّ له إلا كلَّ طيبٍ نافعٍ؛ كما قال تعالى: {وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ}(٢٤)، فلم يَصْدُرِ الأمْرُ الإلَهِيُّ تضييقًا علَى الناسِ –كما يَرَاهُ الكثيرونَ منهم! –، وإنما قامَتِ الشرائعُ علَى المحبةِ والرحمةِ وما يُحقق مصالحَ العِبَادِ في مَعاشِهِم ومَعادِهِم.

المبحث الثاني: مفهومه لمحو السيئات من خلال النص القرآني

لقد استطاع د. مصطفى محمود أنْ ينظرَ بعينِ التأملِ والتفكرِ والتدبرِ في آياتِ اللهِ تعالى مِن خلالِ مؤلفاتِهِ الخاصةِ، كما استطاع –بأسلوبه اليسير السهل– أنْ يحققَ قوله تعالى: {وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ}(٢٥).

وقد تَجَلَّى ذلك عندما تَعَرَّضَ د. مصطفى محمود إلى تفسير قوله تعالى: {يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ}(٢٦)؛ حيث قال –حاكيًا قولَ صَدِيقِهِ الملْحِدِ ومجيبًا علَى تساؤلاتِهِ وشُكُوكِهِ!–: «وكيف يَمْحُو اللهُ ما يَكْتُبُ في لوحِ قَضائِهِ ؟!، أيُخْطِئُ ربُّكم كما نُخْطِئ في الحسابِ فيَمْحُوَ ويُثْبِتُ، أم يُراجِعُ نَفْسَه كما نُرَاجِعُ أنْفُسِنا ؟!. اللهُ يَمْحُو السيئةَ بأنْ يُلْهِمَك بالحسنةِ؛ يقولُ في كتابِهِ {إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ}(٢٧)، ويقولُ عن عِبَادِه الصاحينَ: {وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ}(٢٨)، وبذلك يَمْحُو اللهُ دُونَ أنْ يَمْحُوَ، وهذا سِرُّ الآيةِ»(٢٩).

ومِن الملاحَظِ أنَّ د. مصطفى محمود قد فَسَّر الآيةَ تفسيرًا عقليًّا، ثم هَدَاهُ قولُه إلى تفسيرِها بآياتٍ مِن سُورَةِ «هودٍ» وسُورَةِ «الأنبياء»؛ وهو: «تفسيرُ قرآنٍ بقرآنٍ». كما يَتَبَيَّنُ بالملاحَظَةِ أنَّ د. مصطفى محمود لم يُوَضِّحْ في اختيارِهِ قولَ مَن هذا مِن المفسرين ؟!.

وعند البحثِ والتتبعِ والاستقراءِ في كُتُبِ التفسيرِ؛ وَجَدْنا أنَّ هذا القولَ –الذى ذهب إليه د. مصطفى محمود–: هو قولُ عِكْرِمَةَ؛ حيث قال: «{يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ}(٣٠) من الذنوب بالتوبة،

ويُثْبِت بدل الذنوب حسنات؛ كما قال الله تعالى: {فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ}[٣١]»[٣٢].

وبالنظرِ في كُتُبِ تفسيرِ السابقين؛ نَجِدُ أقوالاً كثيرةً غيرَ قولِ د. مصطفى محمود –والذي يتميز قولُهُ بِحُسْنِ الفَهْمِ، ودقةِ التعبيرِ، وتفسيرِ الآيةِ بالمأثور مِن كتابِ اللهِ تعالى–، ومن ذلك : ما ذَكَرَهُ السَّمَرْقَنْدِيُّ في تفسير الآية مِن أقوالٍ سِتَّةٍ؛ وهي[٣٣]

١– فيمحو الله ما يشاء ويُثْبِتً ما يشاء من أرزاق العباد ومَصَايِبِهِم فيما يعطيهم، وبما يرزقهم ويَقْسِمُ لهم.

٢– عن أبي وائل أنه كان يقول في دعائه: «اللهُمَّ إنْ كنتَ كَتَبْتَنَا سُعَدَاءً؛ فأثْبِتْنَا، وإنْ كُنْتَ كَتَبْتَنَا أشْقِيَاءً؛ فَامْحُنَا، واكْتُبْنَا سُعَدَاءً، فَإِنَّكَ تَمْحُو مَا تَشَاءُ وَتُثْبِتُ مَا تَشَاءُ وَعِنْدَكَ أمُّ الكِتَابِ».

٣– وعن مجاهد أنه قال: «الشَّقَاوَةُ وَالسَّعَادَةُ لا يَتَغَيَّرَانِ»، ويقال: {يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ}[٣٤]؛ يعني: من أعمال بني آدم وما كَتَبَتِ الحفظةُ ما ليس فيه جزاء خير ولا شر، ويُثْبِتُ ما فيه جزاء خير أو شر.

٤– ورُوِي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «إنَّ الحَفَظَةَ إذَا رَفَعَتْ دِيوَانَ الْعَبْدِ؛ فإنْ كَانَ فِي أوَّلِهِ وَآخِرِهِ خَيْرٌ؛ يَمْحُو اللهُ مَا بَيْنَهُمَا مِنَ السَّيِّئَاتِ، وإنْ لَمْ يَكُنْ فِي أوَّلِهِ وَآخِرِهِ حَسَنَاتٍ؛ يُثْبِتُ مَا فِيْهِ مِنَ السَّيِّئَاتِ».

٥– قال مقاتل: «{يَمْحُو اللَّهُ}؛ يَعْنِي: يَنْسَخُ اللهُ مَا يَشَاءُ مِنَ الْقُرْآنِ وَيُثْبِتُ»، يقول: ويُقِرُّ المُحكَم الناسخ ما يشاء، فلا ينسخه، ويقال: {يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ}؛ يعني: المعرفة عن قلب مَن يشاء.

٦– يمحو من الشرائع والكتب المَمْحُوَّة –كالتوراة والإنجيل والزبور–، ويثبت هو القرآن الذي أُنزِل على محمد ﷺ. (وهذا القول هو المختار)، ويقال: يقضي على العبد البلاء فيدعو العبد، فيزول عنه؛ كما رُوِيَ في الخبر: «الدُّعَاءُ يَرُدُّ الْبَلَاءَ»[٣٥].

○ وقال القُشَيْرِيُّ: «يمحو الله نضارة الشباب ويُثْبِتُ ضعف المشيب.

– ويقال: يمحو عن قلوبِ الراغبينَ في مَوَدَّةِ أهلِ الدنيا ما كان يَحْمِلُهُم علَى إيثارِ صُحْبَتِهِم، ويُثْبِتُ بَدَلاً منه الزُّهْدَ في صُحْبَتِهِم والاشتغالِ بِعِشْرَتِهِم.

– ويقال: يمحو اللهُ ما يشاء مِن أيام صَفَتْ مِن الغيبِ، وليالٍ كانت مُضَاءَة بالزُّلْفَة والقُرْبَة، ويُثْبِتُ بَدَلاً من ذلك أيامًا هي أشَدُّ ظلامًا مِن الليالي الحنادِس، وزمانًا يجعل سِعَةَ الدنيا عليهم مَحَابِس.

– ويقال: يمحو العارفين بكشف جلاله، ويثبتهم في وقت آخر بلطف جماله.

– ويقال: يمحوهم إذا تَجَلَّى لهم، ويُثْبِتُهُم إذا تَعَزَّز عليهم.

– ويقال: يمحوهم إذا رَدَّهُم إلى أسبابِ التفرقةِ؛ لأنهم يبصرون بِنَعْتِ الافتقارِ والانكسارِ، ويُثْبِتُهُم إذا تَجَلَّى لِقلوبهم، فيبصرون بِنَعْتِ الاستبشارِ، ويَشْهَدُون بحُكْمِ الافتخار»[٣٦].

وتلك الأقوال وإنْ كان لها قَدْرًا مِن الوَجَاهَةِ، والقَبُولِ، والاحتمال مِن أوْجُهٍ: إلا أنَّ اختيارَ د. مصطفى محمود –بالنسبة إليها– يُعَدُّ مِن أفضلهم؛ وذلك لاستدلالِهِ بالنصِّ القرآنيّ، وتفسيرِهِ القرآنَ بالقرآنِ.

المبحث الثالث : مفهوم د. مصطفى محمود للحروف المقطعة ما هي «الحروف المقطعة» ؟!

«الحروف المقطعة»، أو «المقطعات»، أو «أوائل السور»، أو «فواتح السور» أو «الفواتح»: هي مِن الحروفِ الهِجائيةِ، تبتدأ بها بعضُ سُوَرِ القرآنِ الكريم، وقد افتُتِحَتْ بها تسعٌ وعشرون سُورَةً مِن سُوَرِ القرآنِ الكريم، وقد جَمَعَهَا بعضُهم في قوله: «نَصٌّ حَكِيمٌ قَاطِعٌ لَهُ سِرٌّ!»، ومِنْ هذه السُّوَرِ ما افتُتِحَتْ بحرفٍ واحِدٍ، ومنها ما افتُتِحَ بِحَرْفَيْنِ أو بِثَلَاثَةٍ، أو بِأَرْبَعَةٍ، أو بِخَمْسَةٍ[٣٧].

مجمل مَذَاهِبِ وآراءِ المفسرينَ في «الحروف المقطعة»

الحروف المقطعة هي من المتشابه الذي اختلف العلماء فيه، فكانوا فيه على مذهبين:

♦ المذهب الأول: (مذهب التفويض) : وأصحابه آثروا السلامة، وتركوا الخوْضَ في تأويلها فَرَقًا مِن أنْ يقولوا في القرآنِ بِرَأيٍ لا يستندُ إلى دليلٍ ظاهرٍ، فيعرّضُوا أنفسهم لغضب الله وعذابه؛ حيث أنَّ التَّقَوُّلَ عليه بغير عِلْمٍ مِن أكبر الكبائر وأعظمها جرمًا، كما دلت الأدلة.

♦ المذهب الثاني : (مذهب التأويل) : وأصحاب هذا المذهب قد اختلفوا في تأويل هذه الحروف اختلافًا كثيرًا، ومِن أشهر تلك الأقوال :

١– أنها أسماءٌ للسورِ التي افْتُتِحَتْ بها. ٢– أو أنها أسماءٌ للهِ عز وجل.

٣– أو أنَّ كلَّ حَرْفٍ مِن هذه الحروفِ دالٌّ علَى اسمٍ مِن أسماءِ اللهِ، وصِفَةٍ مِن صفاتِهِ.

٤– أو أنها أقسام أقْسَمَ اللهُ بها. ٥– أو أنها إشارةٌ إلى مُدَّةِ بَقاءِ هذه الأمةِ.

٦– أو أنها أدواتُ تَنْبِيهٍ علَى غيرِ ما أَلِفَ العَرَبُ مثل: "ألا، وأما، والهاء من هذا وهؤلاء"

٧– أو أنها حُرُوفٌ تَحَدَّى اللهُ بها العَرَبَ(٣٨).

وهناك أقوالٌ أخرى حاول أحَدُ العلماءِ اسْتِقْصَاءَهَا؛ فَبَلَغَتْ –عنده– نَحْوَ عشرين قولاً(٣٩).

رأي د. مصطفى محمود في «الحروف المقطعة»

ومَدَى موافقته لآراء المفسرين

يقول د. مصطفى محمود: «الحروفُ المقطعةُ في أوائلِ السُّوَرِ كانت ومازالت مِن ألغازِ القرآنِ وطَلَاسِمِهِ!، وقد اختَلَفَ في شأنِها المفسرون» (٤٠).

ويقول أيضًا –بَعْدَ أنْ اجْتَهَدَ في ذِكْرِ خصائصِ ودِلَالَاتِ بعضِ حُرُوفِ الهِجاءِ– : «ولكني أعتقد أنَّ مِفْتاحَ معناها –فيما قَدَّمْتُ في البدايةِ– مِنْ أنَّ كلَّ حَرْفٍ له سِرٌّ ومَعْنَى خاصٌّ به وذاتِيَّةٌ، كلُّ حَرْفٍ له مَكَامِنٌ ومَغَالِيقٌ ... واللهُ خَلَقَ العالَمَ بكلمةِ (كُنْ) ... وبَيْنَ الكافِ والنونِ طَلَاسِمٌ مَطْلَسَمَةٌ!، لا عِلْمَ لِأحَدٍ بها، ونحن لم نَكْتَشِفْ مِن أسرارِ الحروفِ ووظائِفِها إلا أقلَّ القليلِ!!»(٤١).

ويقول أيضًا –بَعْدَ أنْ ذَكَرَ اجتهادَ أحَدِ المعاصرينَ في استخراجِ بعضِ الدِّلَالَاتِ الحسابيةِ الدقيقةِ –بِزَعْمِهِ!– للحروفِ المقطعةِ داخلِ السُّوَرِ–: «لم تَعُدِ المسألةُ صُدْفَة!، وإنما نحن أمامَ قوانينَ

مُحْكَمَةٍ وحروفٍ محسوبةٍ، كلُّ حَرْفٍ وُضِع بميزانٍ ... {اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ}(٤٢) وأيُّ مِيزانٍ ؟!، نحن هنا أمامَ مِيزانٍ يَدِقُّ حتى يَزِن الشَّعْرَةَ والحَرْفَ! ... فإذا عَرَفْنَا أنَّ القرآنَ نَزَلَ مُفَرَّقًا ومُقَطَّعًا على ثلاث وعشرين سَنَةً؛ فإنَّا سوف نَعْرِفُ أنَّ وَضْعَ مُعَدَّلاتٍ إحصائيةٍ مُسَبَّقَةٍ بحروفِهِ: هي استحالةٌ أخرى!، وأمْرٌ لا يُمْكِنُ أنْ يَعْرِفَهُ إلا العليمُ الذي يَعْلَمُ كلَّ شيءٍ قَبْلَ حُدُوثِهِ، والذي يُحْصِي بأسرعِ وأدَقِّ مِن كلِّ العقولِ الإلكترونيةِ؛ اللهُ الذي {أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا}(٤٣)، وما هذه الحروفُ المقطعةُ في فواتِحِ السُّوَرِ إلا رُمُوزُ عِلْمِهِ؛ بَثَّها في تَضَاعِيفِ كِتَابِهِ لِنَكْشِفَها نحن علَى مَدَى الزمانِ {سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ}(٤٤)، ولا أقولُ أنَّ هذه كلُّ أسرارِ الحروفِ، بل هي مجردُ بدايةٍ لا أحَدَ يَدْرِي إلى أيِّ آفاقٍ سوف تُوصِلُنا»(٤٥).

فالدكتور مصطفى محمود –كما تَبَيَّن مِن كلامِهِ– يعتقدُ أنَّ لهذه الحروفِ المقطعةِ معانيَ وأسرارًا، وأنها لم تُطْلَق جُزَافًا ولا عَبَثًا –تعالى الله عن ذلك عُلُوًّا كبيرًا–، لكنه في الوقت ذاتِهِ يَزْعُمُ أنها مازالت ألغازًا وطَلَاسِمَ بالنسبةِ إلينا؛ إذ لم يَتَكَشَّفْ لدينا حقيقةُ معناها ولا سِرُّها إلى الآن!، وأنها مما يَخْضَعُ للاجتهاد في تفسيرِها وبيانِ معناها، ولأجْلِ ذلك: فنراه يَقْبَلُ الافتراضاتِ والنظرياتِ في تفسيرِها، فَتَارَّةً يُشِيرُ إلى دِلَالَاتِها الحسابيةِ الدقيقةِ داخلِ السُّوَرِ، وتارَّةً أخرى يُشِيرُ إلى دِلالاتِ الحروفِ الهجائيةِ وصفاتِها الذاتيةِ –وهي الإشارةُ التي مَالَ إليها–.

وعند النظرِ إلى ما ذهب إليه د. مصطفى محمود في «الحروف المقطعة» وتأمُّلِ رأيِهِ فيها؛ نَجِدُ أنَّ مذهبَهُ فيها يَدُورُ حَوْلَ ثلاثةِ أمورٍ :

١– الأول: أنه قد وافق إجماعَ المفسرينَ علَى أنَّ للحروفِ المقطعةِ معانيَ وأسرارًا.

٢– الثاني: أنه قد اتفق في رأيِهِ مع رأيِ عامةِ المفسرينَ الذين جَوَّزوا الاجتهادَ في تفسيرِ الحروفِ المقطعةِ، ومِن ثَمَّ كان له اجتهادُهُ الخاصُّ في تفسيرِها.

٣– الثالث: أنه لم يَجْزِمْ باجتهادِهِ في تفسيرِها، وأكَّدَ علَى فِكْرَةِ أنها سِرٌّ مِن أسرارِ اللهِ عز وجل في كتابِهِ التي لم تَتَكَشَّفْ حقيقتُها بَعْدُ.

كما رُوِي عن الشَّعْبِيّ أنه قال: «إنَّ للهِ تعالى سِرًّا جعله في كُتُبِهِ، وإنَّ سِرَّهُ في القرآنِ هو الحروفُ المقطعةُ»(٤٦).

التوصيات

هذا وقد رأيتُ أنه من الأهمية بمكان: أنْ أذكر جانبًا من التوصيات المهمة؛ ليستفيد منها كل باحث في تعزيز بحثه. فمن ذلك :

١– الدكتور مصطفى محمود –كما ذكرتُ في مقدمة هذا البحث– معدودٌ مِن الشخصياتِ البارزةِ التي حَظِيَت باحترامٍ وقبول في الأوساطِ المختلفةِ في عصرنا؛ فينبغي أنْ تُولَى كُتُبُهُ مزيدًا من الاهتمام والعناية والتحرير بما يليق بمستوى تلك الشخصية العلمية الفذة الفريدة. ولنْ يَعْدِمَ الباحثون المجِدُّون المتخصصون في سائر الفنون؛ لنْ يَعْدِمُوا العثورَ علَى مادةٍ دَسِمَةٍ غزيرةِ الفوائد في تخصصاتهم؛ فإنَّ الرَّجُلَ رحمه الله كان موسوعةً علميةٍ –بحق– في سائر العلوم.

٢– أوصي القائمين على دور النشر والطباعة: بالاهتمام بتراث د. مصطفى محمود المطبوع من حيث إعادة طبع مؤلفاته القديمة طبعات جديدة، ومن حيث جودة الطباعة، وخدمة المحتوى –تدقيقًا وتحقيقًا وتخريجًا–، وإضافة الفهارس العلمية والفنية المتنوعة؛ وذلك لمساعدة الباحثين على سهولة الوصول إلى مبتغاهم.

٣– د. مصطفى محمود من الشخصيات التي قد أسيء فهمها في كثير من المواقف والمسائل العلمية، وعند التحقيق والتمحيص تبين أنه بريء منها؛ فنوصي الباحثين بعدم التعجل في تحرير آرائه –فضلاً عن الحكم عليها–، إلا بعد جمع كلامه من هنا وهناك، مع ضرورة التأني والإنصاف، وتناول البحث وفقا للمعايير الموضوعية والعلمية.

٤– وجيه عناية الباحثين إلى الكشف عن كثير من المفاهيم التربوية الأخلاقية القرآنية في كتابات د. مصطفى محمود.

٥– توجيه عناية الباحثين إلى الكشف عن أسرار القرآن الكريم ومكنوناته من خلال شتى ألوان التفاسير.

٦– دعوة الباحثين الجادين إلى اكتشاف ما وراء السطور في المقالات الهادفة الكثيرة في كتابات د. مصطفى محمود، والتي حذر فيها من الغزو الفكري الذي ينتهجه أعداء الإسلام لإبعاد المسلمين وسلخهم عن دينهم.

الخاتمة

فهذا آخرُ ما وفَّقَنِي اللهُ عز وجل في موضوعِ هذا البحث، ولا أزْعُمُ أنني بتَمَامِهِ وَفَّيْتُ، ولا لفُروعِهِ استَقْصَيْتُ!، ولكنه جُهْدُ المقِلّ!، ومَنْ لم يألُ[٤٧] جُهْدَ الإصابة.

ولله دَرُّ القاضي عبدِ الرحيمِ البيسانيّ –المُلَقَّبِ بأستاذِ البُلَغَاءِ–؛ وقد كَتَبَ إلى العِمادِ الأصفهانيّ معتذرًا عن كلامٍ استدرَكَهُ عليه قائلاً: «إني رَأَيْتُ أنَّه لا يَكْتُبُ إنسانٌ كتابًا في يومٍ إلا قَالَ في غَدِه: (لَوْ غُيِّرَ هذا؛ لَكَانَ أحسن!، وَلَوْ زِيدَ كَذَا؛ لَكَانَ يُسْتَحْسَن!، وَلَوْ قُدِّمَ كَذَا؛ لَكَانَ أفضل!، وَلَوْ تُرِكَ هذا؛ لَكَانَ أجمل!. وَهَذا مِنْ أعظم العِبَر، وهو دَلِيلٌ عَلَى استِيلاءِ النَّقْصِ عَلَى جُمْلَةِ البَشَر». فيَأْبَى اللهُ إلا أنْ يَتَفَرَّدَ بالكمالِ؛ كما قيل:

والنَّقْصُ فِي أصْلِ الطَّبِيعَةِ كَامِنٌ ♣♣♣ فَبَنُو الطَّبِيعَةِ نَقْصُهُمْ لا يُجْحَدُ

فلستُ مَعْصُومًا مِن الزَّلَلِ، ولا آمِنًا مِن مُقَارَفَةِ الخَطَلِ، وكيف يُعْصَمُ مِن الخطأِ من خُلِقَ {ظَلُومًا جَهُولًا}!، ولكن من عُدَّتْ غَلَطَاتُهُ: أقربُ إلى الصوابِ مِمَنْ عُدَّتْ إصاباتُه.

«فَإن يَكُ صَوَابًا؛ فَمِنَ الله، وَإن يَكُ خَطَأً؛ فَمِنْ نَفْسِي وَمِنَ الشَّيْطَانِ، وَاللهُ عزوجل وَرَسُولُهُ مِنْهُ بَرِيئَانِ، وأسْتَغْفِرُ اللهَ»[٤٨].

واللهَ أسألُ أنْ يَتَقَبَّلَهُ مِنِّي، وأنْ يَجْعَلَهُ زادًا لِحُسْنِ المصِيرِ إليه، وعَتادًا لِيُمْنِ القُدومِ عليه، إنه بِكُلِّ جميلٍ كَفِيل، وهو حَسْبِي ونِعْمَ الوكي

الهوامش:

(١) سورة النحل: (٤٤).
(٢) سورة فصلت: (٥٣)
(٣) سورة آل عمران (٨)
(٤) سورة القيامة: (١٩)
(٥) القرآن محاولة لفهم عصري للقرآن، د. مصطفى محمود، طبعة مؤسسة روزا اليوسف، ص (٤٨) .
(٦) القرآن محاولة لفهم عصري للقرآن، د. مصطفى محمود، طبعة مؤسسة روزا اليوسف، ص (٥٣) .
(٧) سورة النمل: (١٨).
(٨) حوار مع صديقي الملحد، د. مصطفى محمود، دار العودة، لبنان، ط ١٩٨٦م. ص (١١٧)، وأيضًا: القرآن محاولة لفهم عصري للقرآن، د مصطفى محمود، ص (١٣٣).
(٩) موقع بيان الإسلام للرد على شبهات حول الإسلام، مقال بعنوان: «إنكار حقيقة تكلُّم نملة سليمان عليه السلام».
(١٠) القرآن محاولة لفهم عصري للقرآن، د. مصطفى محمود، طبعة مؤسسة روزا اليوسف، ص (١٢–١٣) باختصار.
(١١) سورة الواقعة: (٦٣–٦٥).
(١٢) سورة الواقعة: (٦٨–٧٠) .
(١٣) حوار مع صديقي الملحد، د. مصطفى محمود، دار العودة، لبنان، ط ١٩٨٦م. ص (٩٧–٩٨).
(١٤) القرآن محاولة لفهم عصري للقرآن، د. مصطفى محمود، طبعة مؤسسة روزا اليوسف، ص (١٢٢–١٢٣).
(١٥) المرجع السابق باختصار، ص (٦٣).
(١٦) سورة الواقعة: (٧٩).
(١٧) الإسلام ما هو .. ؟، د. مصطفى محمود، نشر دار أخبار اليوم، الطبعة الأولى ٢٠٠٨م، ص (٤٨–٤٩).
(١٨) المرجع السابق.
(١٩) انظر: العدة في أصول الفقه، أبو يعلى محمد بن الحسين الفراء القاضي ، الناشر: غير معروف، الطبعة الثانية ١٤١٠هـ، السعودية، (١/ ٢٠٥–٢٠٨)، والمستصفى، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي ، نشر دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ بيروت ص (٢٧٢–٢٧٣)، والمحصول ، أبو عبد الله فخر الدين محمد بن عمر بن الحسن التيمي الرازي، نشر مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة ١٤١٨هـ، بيروت، (١/ ٣٨١–٣٨٤)، والبرهان في أصول الفقه، أبو المعالي ركن الدين عبد الملك بن عبد الله بن يوسف بن محمد الجويني، الملقب بإمام الحرمين، نشر دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ، بيروت، (٢/ ٣٥)، البحر المحيط في أصول الفقه، أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي، نشر دار الكتبي، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ، (٥/ ١٨١–١٨٤)، والإتقان في علوم القرآن، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي، نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الأولى ١٣٩٤هـ، مصر، (٣/ ١٦٧–١٧٠)، الكليات، أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني القريمي الكفوي، نشر مؤسسة الرسالة، بيروت، ص (٣٨٣).
(٢٠) انظر: مناقب الشافعي، أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي ، نشر مكتبة دار التراث، الطبعة: الأولى ١٣٩٠هـ، القاهرة (١/ ٢٨٦)، وأحكام القرآن الكريم، أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة الأزدي الحجري المصري المعروف بالطحاوي، نشر مركز البحوث الإسلامية باستانبول، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ، تركيا، (١/ ١١٨).

(٢١) سورة الأعراف: (١٥٧).
(٢٢) سورة النور: (٣٠–٣١).
(٢٣) القرآن محاولة لفهم عصري للقرآن، د. مصطفى محمود، طبعة مؤسسة روزا اليوسف، ص (٨٥–٨٧)
.

(٢٤) سورة الأعراف: (١٥٧).
(٢٥) سورة القمر: (١٧، ٢٢، ٣٢، ٤٠، ٥١).
(٢٦) سورة الرعد: (٣٩).
(٢٧) سورة هود: (١١٤).
(٢٨) سورة الأنبياء: (٧٣).
(٢٩) حوار مع صديقي الملحد، د. مصطفى محمود، دار العودة، لبنان، ط ١٩٨٦م. ص (١١٧–١١٨).
(٣٠) سورة الرعد: (٣٩).
(٣١) سورة الفرقان: (٧٠).
(٣٢) تفسير البغوي المسمى معالم التنزيل في تفسير القرآن، محيي السنة أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي، نشر دار طيبة، الطبعة الرابعة ١٤١٧هـ، (٤/ ٣٢٥).
(٣٣) انظر: تفسير السمرقندي المسمى بحر العلوم، أبو الليث نصر بن محمد بن أحمد بن إبراهيم السمرقندي، نشر دار الفكر، بيروت، (٢/ ٢٣١) وما بعدها.
(٣٤) سورة الرعد: (٣٩).
(٣٥) رُوِى هذا الحديث بعدة ألفاظ؛ منها: «لَا يَرُدُّ الْقَدَرَ إِلَّا الدُّعَاءُ وَلَا يَزِيدُ فِي الْعُمُرِ إِلَّا الْبِرُّ».، ومنها: «ادْعُوا فَإِنَّ الدُّعَاءَ يَرُدُّ الْقَضَاءَ». انظر: المصنف، أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة الكوفي العبسي، نشر دار التاج بلبنان، ومكتبة الرشد بالرياض، ومكتبة العلوم والحكم بالمدينة المنورة، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ، (٦/ ١٠٩)، والدعاء، أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، نشر دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ، بيروت، ص (٣٠).
(٣٦) انظر: تفسير القشيري المسمى لطائف الإشارات، أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري النيسابوري، نشر دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ، بيروت(١١٣/١٢)، وتفسير السمعاني المسمى بتفسير القرآن، أبو المظفر، منصور بن محمد بن عبد الجبار بن أحمد المروزى السمعاني، نشر دار الوطن، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ » الرياض ، (٣/ ٩٩–١٠٠):
(٣٧) دراسات في علوم القرآن، محمد بكر إسماعيل، نشر دار المنار، الطبعة الثانية ١٤١٩هـ.، القاهرة، ص (٢٠٥).
(٣٨) المرجع السابق، ص (٢٠٥–٢١٣).
(٣٩) انظر: قانون التأويل، القاضي محمد بن عبد الله أبو بكر بن العربي المعافري الاشبيلي، نشر دار القبلة للثقافة الإسلاميَّة بجَدّة، ومؤسَسَة عُلوم القرآن، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ، ص (٥٢٧).
(٤٠) من أسرار القرآن، د, مصطفى محمود، نشر مطابع أخبار اليوم، الطبعة الأولى ١٩٧٦م، القاهرة، ص (٧٠),
(٤١) الشيطان يحكم، د. مصطفى محمود، نشر دار المعارف، الطبعة الاولى ١٩٩٠م، القاهرة، ص (١٤٠–١٤١).
(٤٢) سورة الشورى: (١٧).
(٤٣) سورة الطلاق: (١٢)
(٤٤) سورة فصلت: (٥٣).
(٤٥) حوار مع صديقي الملحد، د. مصطفى محمود، دار العودة، لبنان، ط ١٩٨٦م. ص (١٤٢–١٤٣).
(٤٦) انظر: بحر العلوم، أبو الليث نصر بن محمد بن أحمد بن إبراهيم السمرقندي، نشر دار الكتب العلمية، الطبعة الاولى ١٤١٣هـ، بيروت، (١/ ٨٧).

(٤٧) أي: لم أَدَعْ جُهْدًا، ولم أَفْتُر أو أُقَصِّر. لسان العرب، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن على بن منظور الإفريقي، نشر دار صادر، الطبعة الثالثة١٤١٤هـ، بيروت، (١٤ /٤٠).

(٤٨) اشتُهِرَ نَحْوُ هذا الكلامِ عن جماعةٍ من الصحابةِ في وقائعَ مختلفةٍ؛ أصَحُّها ما ثَبَتَ عن عبدِ اللهِ بنِ مسعودٍ رضي الله عنه، وثَبَتَ نحوُهُ –أيضًا– عن عمرَ بنِ الخطابِ رضي الله عنه، ورُوِيَ! نحوُهُ عن أبي بكرٍ الصديقِ رضي الله عنه.

المصادر والمراجع

*القرآن الكريم.

*القرآن محاولة لفهم عصرى للقرآن ,دمصطفى محمود ,ط١,مؤسسة روزا اليوسف , سنة ١٩٩٩

*حوار مع صديقى الملحد ,دمصطفى محمود , دار العودة لبنان , ط١٩٨٦م,

*موقع بيان الإسلام للرد على شبهات حول الإسلام , مقال بعنوان (إنكار حقيقية تكلم نملة سليمان علية السلام)

*الإسلام ما هو ؟دمصطفى محمود دار أخبار اليوم ,ط١ ٢٠٠٨م .

* مناقب الشافعي، أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي ، نشر مكتبة دار التراث، الطبعة: الأولى ١٣٩٠هـ، القاهرة وأحكام القرآن الكريم، أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة الأزدي الحجري المصري المعروف بالطحاوي، نشر مركز البحوث الإسلامية باستانبول، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ، تركيا.

*الدر المنثور في التفسير بالمأثور، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، نشر دار الفكر، بيروت،.

*تفسير مجاهد، أبو الحسن آدم بن أبى إياس عبد الرحمن بن محمد بن شعيب الخراسانى، نشر دار الفكر الإسلامي الحديثة، الطبعةالأولى ١٤١٠هـ، مصر، مسند ابن الجعد أو الجعديات، أبو القاسم عبد الله بن محمد بن عبد العزيز البغوي، نشر مؤسسة نادر، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ، بيروت، وجامع البيان عن تأويل آي القرآن، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، نشر دار التربية والتراث، مكة المكرمة،.

* معاني القرآن، أبو زكريا يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور الديلمي الفراء، نشر دار المصرية للتأليف والترجمة، الطبعة الأولى، مصر.

* تفسير البغوي المسمى معالم التنزيل في تفسير القرآن، محيي السنة أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي، نشر دار طيبة، الطبعة الرابعة ١٤١٧هـ.

*تفسير السمرقندي المسمى بحر العلوم، أبو الليث نصر بن محمد بن أحمد بن إبراهيم السمرقندي، نشر دار الفكر، بيروت،

*بحر العلوم، أبو الليث نصر بن محمد بن أحمد بن إبراهيم السمرقندي، نشر دار الكتب العلمية، الطبعة الاولى ١٤١٣هـ، بيروت،.

*تفسير القشيري المسمى لطائف الإشارات، أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري النيسابوري، نشر دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ، بيروت.

* من أسرار القرآن، د, مصطفى محمود، نشر مطابع أخبار اليوم، الطبعة الأولى ١٩٧٦م، القاهرة.

* الشيطان يحكم، د. مصطفى محمود، نشر دار المعارف، الطبعة الاولى ١٩٩٠م، القاهرة.